مآذن الموصل: مواقعها و دلالة تغيّر طرازها

د.حسان محمود الحاج قاسم
مدرس/ قسم الهندسة المعمارية،جامعة الموصل

الخلاصة

تتميز الموصل القديمة – كمدينة إسلامية- بتراثها المعماري الممتد منذ الفتح الإسلامي، وبالذات أبنية الجوامع بمآذنها الشامخة. عند تحليل الخصائص المعمارية للمآذن؛ وهي الخصائص المرتبطة بعلاقتها مع الجامع والموقع وخصائص العناصر المُركبّة لها؛ يتبيّن أن كثيراً من الجوامع لا مئذنة فيها، فمن مجموع الجوامع القديمة البالغ عددها 32 جامعاً هناك 13 جامعاً فيها مآذن، (بنسبة 40%). ويمكن تصنيفها عند تحليل خصائصها التصميمية إلى طرازين: المآذن ذات الخصائص المستمدة من المآذن المحلية للعصور السابقة، والمآذن المتأثرة خصائصها بالمآذن التركية.

يهدف البحث إلى فهم و تعليل تلك الظاهرتين، إذ يفترض أنّ ذلك متعلق بمحددات الشريعة الإسلامية من جهة، والخصوصية المحلية المرتبطة بالظروف السياسية والثقافية من جهة أُخرى. وقد تبيّن أنّ محددات الشريعة حددت تواجد المآذن في المواقع التي لاتؤثر في خصوصية السكن، وهكذا وُجدت حصرياً في الأسواق أو محاذية للسور أو في مواقع كانت قديماً مناطق عامة. كما تبيّن أن المآذن ذات الخصائص المحلية قد بُنيت عند حكم الولاة المحليين وهيمنة الثقافة المحلية المستمدة أُصولها من العصور السابقة، أما المآذن المتأثرة خصائصها بالمآذن التركية فقد بُنيت عند تبعية المدينة للحكم العثماني المباشر.

الكلمات المفتاحية: العمارة الإسلامية، المآذن، مدينة الموصل

Minarets of Mosul: Location and Signification of Style Change

Dr. Hassan Haj-Kasim

Abstract

Old Mosul –like other Islamic cities- is characterized by the architectural heritage, in particular Mosques with their towering Minarets. While analyzing the architectural characteristics of minarets, those related to their mosques and locations, and syntactical characteristics, most of the mosques have no minarets. Among the 32 old mosques, there are only 13 with minarets (40%). In accordance with architectural characteristics, they could be classified into: those derived from local minarets of previous ages, and those affected by Turkish minarets.

This research aims to examine and interpret these two phenomena. The research hypothesis is that they related to Islamic Law restrictions, and to the local identity related to political and cultural conditions. Islamic Law has restricted the existence of minarets in locations where there is no impacts on housing privacy. Thus, minarets were in markets, near city wall or in locations that were previously public areas. Minarets with local characteristics were built when native rulers ruled the city and local culture rooted from old ages. As for minarets affected by Turkish minarets; they were built when Mosul was directly ruled by Ottomans.

Key Words: Islamic Architecture, Minarets, City of Mosul

أستلم: 15 - 6 – 2011 **قبل: 19 – 12- 2011**

1.المقدمة:

تعد الموصل من المدن التي ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية في مختلف الجوانب الحضارية الفكرية والعلمية والأدبية والفنية عبر العصور، وكان أوج ازدهارها في العصر **الأتابكي** (نهاية العصر العباسي)، لكنها تعرضت للنكبات والتدهور بعد الغزو المغولي، ثم شهدت شيئاً من الإستقرار مع بداية العصر العثماني في القرن السادس عشر، وتمتعت المدينة مع حكم الأُسرة **الجليلية** وهي من العوائل الموصلية (1727 – 1834) بحكم ذاتي عادت لها خلاله ازدهارها وشخصيتها المتميزة الممتدة جذورها منذ العصر العباسي، وإن أغلب الشواخص المعمارية ونسيج المدينة القديمة الباقية تعود لهذه الفترة.

لقد كانت عمارة الموصل ممثلة للعمارة الإسلامية بخصائصها العامة والمتأثرة بالعقيدة والشريعة الإسلامية، والتي تشترك معها عمارة معظم المدن الإسلامية. وبالمقابل لها خصوصيتها المتأثرة بالبيئة والتقاليد المحلية وبما مرت به من ظروف تاريخية، فالوحدة والتنوع من الظواهر المعروفة في الفن والعمارة الإسلامية.

إن أهم أنماط العمارة الإسلامية هي أبنية **الجوامع**، ومع عودة الاستقرار والإنتعاش الحضاري في الموصل في العصر العثماني بُنيت العديد من الجوامع الجديدة وأُعيد بناء القديمة منها عبر أطراف المدينة... ومن أهم العناصر المعمارية الملازمة للجوامع هي **المآذن**... وتنتشر في مدينة الموصل مجموعة من المآذن التراثية القديمة أشهرها المنارة **الحدباء** وهي مئذنة الجامع النوري(العصر الأتابكي) التي بُنيت في القرن الثاني عشر الميلادي، وتعتبر أعلى مئذنة في العراق، وهي من أشهر المعالم الأثرية على مستوى العالم الإسلامي، وتعتبر رمزاً لمدينة الموصل في الوسائل الإعلامية والجماهيرية.

إنّ المآذن (أو المنائر أو الصوامع) تتنوع وتتمايز في أشكالها وطرزها تبعاً لتنوّع وتعدد طرز العمارة الإسلامية عبر الأقطار والعصور... تنتشر معلومات كثيرة عن المآذن في مختلف الأدبيات والبحوث المهتمة بالفن والعمارة الإسلامية، كما توجد **دراسات متخصصة** بالمآذن، مثل دراسة **غازي رجب محمد** (1964) التي تناولت نشوء المآذن في العصر الإسلامي المبكر، وناقش الأصول اللغوية(Mohammad, pp110-128) ونظريات نشوئها-(Ibd., pp141-168) والظروف التاريخية والإجتماعية المرتبطة بنشأتها (Ibd. ,pp1-68).

وتناول **روبرت هيلينبراند** (1994) بالوصف في فصل مطول مآذن مختلف الأقطار الإسلامية وهو يلخص كل ما تقدم من دراسات سابقة منذ الدراسات الأُولى للمستشرقين المتخصصين بالعمارة الإسلامية في القرن التاسع عشر، ويرفق كل ذلك بما نُشر سابقاً من مخططات ورسوم توثيقية لتلك المآذن (Hillenbrand, p129-172, p449-507) .

أما دراسة **حسان الحاج قاسم** (1996)، فقد طرحت إطاراً نظرياً عاماً لدراسة الخصائص التصميمية للمآذن عبر العالم الإسلامي، إذ أن الدراسة صنفت أولاً محاور دراسة المآذن من الدراسات السابقة في تسعة **محاور**: مصطلحاتها، أُصولها المعمارية، علاقتها مع المبنى، أجزاء المئذنة، التقنيات الإنشائية، وظائفها، رمزيتها، و موقف الإسلام من المآذن (قاسم، ص8-22). ثم اقترح الاستفادة من **معاملة العمارة كلغة** لتصنيف مناهج محاور دراسة المآذن ضمن ثلاث مستويات: العملية، الدلالية، والتركيبية (نفسه، ص23-47). ثم اقتصرت الدراسة في تحليل المستوى التركيبي للمآذن فقط وتم تطبيقها على عينة واسعة -485 مئذنة- إذ تم تحليل المئذنة إلى أجزاء وتحديد الخصائص الفيزياوية لتلك الأجزاء والعلاقات التركيبية فيما بينها، والتعبير عن ذلك بصياغة جداول لقواعد المعلومات، ثم إجراء التحاليل المنطقية و الإحصائية عليها (نفسه، ص48-63).

وتقدم الدراسات الثلاث أعلاه مسرداً للمراجع المهمة لدراسة المآذن.

أما الدراسات التي تعرضت لمآذن جوامع الموصل، فأهمها: دراسة **سعيد الديوه جي** (1963) الذي أرّخ ووثق الجوانب التاريخية لجوامع الموصل، ومن خلالها يمكن معرفة تواريخ إنشاء مآذن جوامع الموصل والمراحل التي مرت بها والشخصيات التي قامت ببنائها.

أما دراسة **مكتب الإنشاءات الهندسي** (1983) فإنها وثقت أربعة جوامع، ثلاثة منها (جوامع النبي جرجيس والأغوات والباشا) لها مآذن، وهي الدراسة المنشورة الوحيدة التي تقدم توثيقاً هندسياً لمجموعة من جوامع الموصل (ذنون وآخرون، 1983)،(شكل-1).

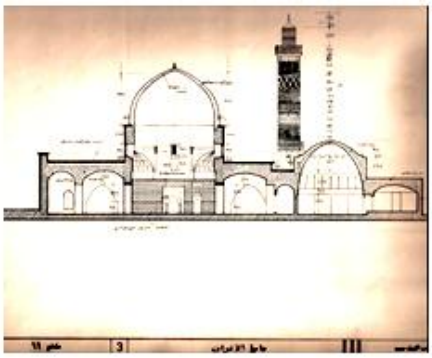

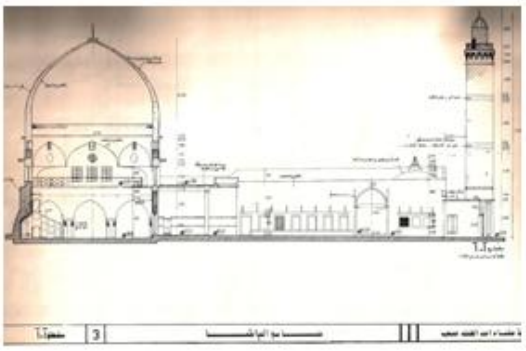

(شكل -1) نموذجين لتوثيق مكتب الإنشاءات الهندسي 1983 لجامعي الأغوات والباشا

وتتناول دراسة **نجاة التوتونجي** (2000) مآذن الموصل من حيث عمارتها وزخارفها، إذ تناولت بالوصف والتوثيق الدقيق خمسة مآذن، هي مآذن جوامع: خزام والأغوات والعمرية والزيواني وعمر الأسود، إذ أنها وصفت أشكالها ومواد بنائها وتفاصيل زخارفها ومواقعها ضمن جوامعها مع رسوم توثيقية (شكل -2) ... وهي تسجل أنّ هذه المآذن قد بُنيت في فترات متقاربة (القرن الثامن عشر) وهي متشابهة في أشكالها وطرق زخارفها ومواد بنائها، وأن تلك الأشكال وطرق الزخرفة مشتقة من مئذنة الجامع النوري "الحدباء" المشيدة في القرن الثاني عشر بالرغم من الفارق الزمني، وأن المئذنة الحدباء مبنية بإتقان ومهارة أكبر من هذه الخمسة اللاحقة لها بخمسة قرون.

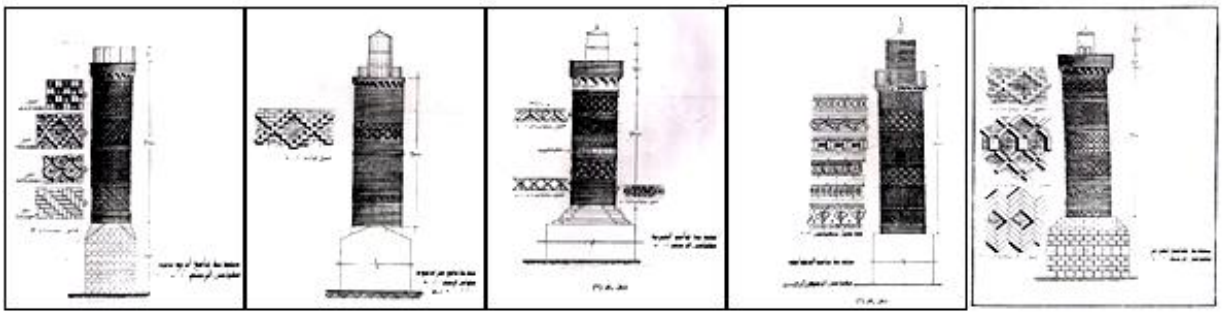

(شكل -2) الرسوم التوثيقية لبعض مآذن الموصل في دراسة التوتونجي 2000

أما دراسة **عبدالله الطيّب** (2001) فتتناول وصف مآذن الموصل باسلوب تحليلي إحصائي لبعض الخصائص الشكلية والبصرية لتلك المآذن.

يهدف البحث الحالي لتناول جوانب أُخرى لمآذن الموصل لم تتناولها أو لم تفسرها الدراسات السابقة، خصوصاً فيما يتعلق بمواقع المآذن بالنسبة للمدينة وعلاقتها بجوامعها، وكذلك لفهم دلالة تغيّر طرازها.

1. الخصائص التصميمية للمآذن:

من الدراسات المتعلقة بالمآذن التي أُستعرضت أعلاه، تتميز دراسة (قاسم،1996) بالإطار النظري الشامل الذي وُضع لتحليل المآذن المشتق من النظريات المعمارية، واعتماداً على وصف المعلومات وتصنيفها ضمن جداول المعلومات Data Base (قاسم، صص48-59)، مما جاء في الدراسة أعلاه وضمن المستوى التركيبي؛ يمكن تصنيف الخصائص المعمارية للمآذن ضمن جانبين:

- وجود المئذنة وعلاقتها مع الجامع
- خصائص المئذنة ذاتها

1.2.علاقة المئذنة مع الجامع:

من المعروف أنّ المآذن هي من العناصر المعمارية الملازمة لأبنية الجوامع ، وإن كانت قد ظهرت أحياناً مع أنواع وظيفية أُخرى، مثل المدارس أو الأضرحة، كما وُجدت بعض المآذن (منائر) منفردة.

و لدراسة علاقة المئذنة مع الجامع في مدينة الموصل، تمّ تنظيم الجدول (1) الذي يستعرض جميع جوامع الموصل التي كانت قائمة حتى نهاية العصر العثماني، إذ يبيّن الجدول: تاريخ تشييد الجوامع، وتاريخ تشييد المئذنة إن وجدت، والشخص الذي شيّد الجامع، والمنطقة التي يقع فيها. وقد أخذت المعلومات من كتاب جوامع الموصل لسعيد الديوه جي (1963) آنف الذكر، باعتباره أشمل مصدر قدم توثيقاً تاريخياُ لهذه الجوامع ([1]).

من ملاحظة الجدول (1) يمكن التوصل إلى العديد من الاستنتاجات، من أهم تلك الملاحظات هي أنه من بين الإثنين والثلاثين جامعاً يوجد فقط ثلاثة عشر جامعاً فيه مئذنة، وهي نسبة تعادل (40%) فقط([2])، وذلك يعني أنّ غالبية الجوامع لا تضم مئذنة، وهذا يتناقض مع الاعتقاد الشائع بأن المئذنة من العناصر الملازمة للجوامع، كما أنّ معظم الأدبيات المتخصصة بالعمارة الإسلامية تؤكد ذلك، فدراسة (Ardalan) تناولت عينة من الجوامع بلغت (113) جامعاً من مختلف الأقطار والعصور، ووجد أنّ (89%) منها تضم مئذنة أو أكثر!

وهكذا فان عدم وجود المآذن في غالبية جوامع الموصل تعتبر ظاهرة جديرة بالبحث عن أسبابها.

2.2. خصائص المآذن:

يمكن دراسة الخصائص التصميمية للمآذن بواسطة تجزئتها الى العناصر الأساسية المكوّنة لها، وتحديد خصائص تلك العناصر الأساسية من حيث الشكل ومواد البناء و الإنهاء وعلاقاتها التركيبية، وترتيب ذلك في جدول معلومات (قاسم، ص55-61)، إذ يصنف الجدول إلى العناصر الأساسية وهذه بدورها تصف إلى الخصائص التصميمية لها، والترتيب التعاقبي للعناصر ضمن الجدول تابع للعلاقة التركيبية المتعاقبة لتلك العناصر من الأسفل إلى الأعلى.

وهكذا تمّ إعداد الجدول (2) الذي يضم مآذن الموصل الثلاث عشرة التي كانت قائمة إلى نهاية العصر العثماني – باستثناء جامع القلعة بمئذنته هُدم بداية القرن العشرين بسبب فقدان القلعة لوظيفتها وبسبب تصدع الجامع، ومئذنة جامع الجويجي هُدمت عام 1959م عند افتتاح شارع الفاروق وبُنيت مكانها مئذنة حجرية، وقد اُعتمدت الرسوم والصور التي توثق أشكالها الأصلية من كتاب سعيد الديوه جي (1963)- أمّا المعلومات عن المآذن الأخرى فقد اُعتمد المسح الميداني (شكل 3).

يُلاحظ من الجدول (2) أنّ مئذنة الجامع النوري (الكبير) **"الحدباء"** هي المئذنة الوحيدة القائمة منذ العصر العباسي، أما باقي المآذن فكلها مبنية خلال العصر العثماني (عدا مئذنة جامع النبي يونس التي أُعيد بناؤها بعده مباشرة).

ومن ملاحظة الخصائص الواردة ضمن الجدول يتبيّن أنه بالإمكان تصنيف هذه المآذن إلى مجموعتين:

- **المجموعة الأولى** التي تضم المآذن من تسلسل (1) إلى (10) والتي تكاد تكون متطابقة في خصائصها: المقطع الدائري لكل من البدن والشرفة والعنق، مبنية بالطابوق – عدا مئذنة جامع الباشا المبنية بالحجارة- ومغلفة بطابوق بأنساق زخارف شريطية هندسية - عدا مئذنتي جامعي الشيخ عبدال و الباشا-، وتتميّز جميعها بوجود شرفة دائرية واحدة بارزة إلى الخارج بواسطة كوابيل أو مقرنصات – عدا مئذنة الجامع النوري المحمولة على دعامات خشبية-، وجميعها تنتهي بقبة صغيرة مبنية بالطابوق والجص ومنهية بالجص. ويرى الباحث أنّ هذه النهايات كانت سابقاً بشكل قباب صغيرة بصلية الشكل مشابهة لقمم مآذن بغداد، وأنّ الأشكال الحالية قد تغيرت بسبب التعرية الجوية أو أعمال صيانة لاحقة، وهذا ما تبيّنه رسومات الرحّالة الأوربيين الذين زاروا الموصل، مثل رسومات باسكال كوسته الذي زار الموصل عام 1841 (Wirth, p91) (شكل-4).

المحموعة الثانية تضم المآذن من تسلسل (11) إلى (13) والتي تشترك مع المجموعة السابقة بمقاطعها الدائرية للبدن والشرفات والعنق، لكنها تتميز بأنها مبنية بالحجارة، وسطوحها ملساء خالية من الزخارف، ولها شرفات متعددة (شرفتان لمئذنتي جامعي النبي جرجيس والنبي يونس، وثلاث شرفات لجامع النبي شيت)، وتنتهي كل منها بقمة مخروطية مبنية بالحجارة

[1]) بقيت قاعدة مئذنة الجامع الاموي قائمة الى اليوم، إلا أنه عند إعادة بناء جامع المصفّي على جزء من الموضع الأصلي للجامع الاموي أصبحت قاعدة المئذنة بعيدة عن الجامع الجديد، وتقع حالياً وسط دور مبنية على عرصات وقفية للجامع (الديوه جي، 1963، ص14)، ونظراً لعدم وجود اية وثيقة تقدم تصوراً واضحاً عن شكلها، وكونها خارج حدود الجامع الحالي؛ فانه لم يتم تضمينها في الجدول (1).

أما جامع حمّو القدّو؛ فيُذكر وجود منارة صغيرة فوق القبة التي كانت متكونة من قشرتين، وقد سقطت المنارة في وقت مبكر أوائل القرن العشرين، ولم يتم توثيقها أو وصفها، ويشير إليها الديوه جي بوصف عابر في سطرين فقط (الديوه جي، 1963، ص246). وحسب وصف المعمّرين الذين يذكرونها؛ يرى الباحث أنها لم تكن منارة حقيقية تنطبق عليها الخصائص التصميمية للمآذن، وانما هي على الأرجح عنصر زخرفي يشبه المنارة، ولذلك لم يتم تضمينها في الجدول (1).

[2]) لاحظ تلك الظاهرة عبدالله الطيّب وحدّد النسبة ب(51.5%) لأنه احتسب المآذن الحديدية والكونكريتية التي أضيفت لاحقاً (الطيّب،2001، ص126)

جدول (1) جوامع الموصل التي كانت قائمة نهاية العصر العثماني، واحدثها للمئذنة (اعداد الباحث)

التسلسل	اسم الجامع	سنة تأسيسه	سنة بنائه النهائية	وجود مئذنة قديمة	بناء المئذنة القائمة	اسم المشيّد	الموقع
1	الجامع الأموي (جامع المَصفى)	بداية العصر الاموي	1225هـ/ 1810م	بنيت عدة مرات	-	الحاج محمد مُصفّي الذهب	محلة رأس الكور
2	الجامع النوري (الكبير)	568هـ/ 1172م	1364هـ/ 1944م	-	568هـ / 1172م	نور الدين زنكي، بلدية الموصل	محلة الجامع الكبير
3	الجامع المجاهدي (الخضر)	572هـ/ 1176م	1139هـ/ 1726م	-	-	مجاهد الدين قيماز، علي باشا	الربض خارج السور
4	جامع النبي يونس	اوائل ق4هـ/ ق11م	767هـ/ 1365م	منارة قديمة	1341هـ/ 1921م	جلال الدين إبراهيم الختني وآخرون عبر العصور	تل التوبة شرق دجلة
5	جامع النبي جرجيس	ق6هـ/ ق13م	796هـ/ 1393م	796هـ/ 1393م	1270هـ/ 1853م	تيمورلنك وآخرون عبر العصور	محلة باب النبي
6	جامع العمرية	موضع لجامع قديم	970هـ/ 1562م	-	1133هـ/ 1720م	الحاج قاسم العمري	محلة الباب الجديد
7	جامع خزام	موضع لجامع قديم	1107هـ/ 1695م	-	1208هـ/ 1796م	السيد محمد خزام الرفاعي	محلة خزام
8	جامع الجوبجي	1060هـ/ 1650م	1379هـ/ 1959م	1107هـ/ 1695	1379هـ/ 1959م	الحاج عبدالله الجوبجي	محلة باب العراق
9	جامع الشيخ عبدال		1082هـ/ 1672م	-	1082هـ/ 1672م	الحاج عبدال الشافعي الموصلي	منطقة الأسواق
10	جامع الشيخ محمد	1084هـ/ 1674م	1347هـ/ 1927م	-	-	الحاج منصور بن حسين التاجر	محلة المنصورية
11	جامع التوكلذي	موضع لجامع قديم	1085هـ/ 1674م	-	-	الحاج أحمد بن عبدو	محلة السوق الصغير
12	جامع عمر الأسود	-	1093هـ/ 1682م	-	1093هـ/ 1682م	عمر الأسود بن حسين التاجر	محلة شهرسوق
13	جامع السلطان أويس	مشهد قديم	1095هـ/ 1684م	-	-	الحاج جمعة الحديثي	محلة باب المسجد
14	جامع سوق العلوة	موضع لجامع قديم	1257هـ/ 1843م	-	-	الوالي محمد بنجة البيرقدار	منطقة الأسواق
15	جامع الغنبار	موضع لجامع قديم	1105هـ/ 1594م	-	-	عشيرة المعاضيد	محلة المكاوي
16	جامع الأغوات	-	1114هـ/ 1703م	-	1114هـ/ 1703م	ابناء عبد الجليل	سوق باب الجسر

*بالنسبة لمئذنة الجامع الاموي، راجع هامش (1) في الصفحة السابقة.

تابع جدول (1) (اعداد الباحث، مصدر المعلومات : كتاب جوامع الموصل لسعيد الديوه جي، 1963)

التسلسل	اسم الجامع	سنة تأسيسه	سنة بنائه النهائية	وجود مئذنة قديمة	بناء المئذنة القائمة	اسم المئذن	الموقع
17	جامع الباشا	1169هـ/ 1758م	1375هـ/ 1955م	-	1169هـ/ 1758م	الوزير محمد أمين باشا الجليلي	سوق باب السراي
18	جامع الامام الباهر	مدرسة ثم مشهد منذ العصر الأتابكي	1178هـ/ 1764م	-	-	السيد بكتاش	محلة الشيخ فتحي
19	جامع الربيعية	-	1180هـ/ 1766م	-	-	رابعة خاتون بنت اسماعيل الجليلي	محلة الربيعية
20	جامع الزيواني	موضع لجامع قديم	1193هـ/ 1779م	-	1193هـ/ 1779م	سليمان باشا الجليلي	محلة باب البيض
21	جامع بكر أفندي	موضع لجامع قديم	1194هـ/ 1780م	-	-	يونس أفندي	محلة رأس الكور
22	جامع النبي شيث	1232هـ/ 1816م	1320هـ/ 1902م	-	1330هـ/ 1912م	سعيد أفندي السعرتي	خارج سور المدينة
23	جامع جمشيد	موضع لجامع قديم	1212هـ/ 1797م	-	-	بكر أفندي بن يونس أفندي	محلة جمشيد
24	جامع المحمودين	موضع لجامع قديم	1212هـ/ 1797م	-	-	محمود باشا بن محمد باشا الجليلي ووالدته	محلة المحمودين
25	جامع النعمانية	موضع لجامع قديم	1213هـ/ 1798م	-	-	نعمان باشا الجليلي	محلة السراجخانة
26	جامع الشهوان (شيخ الشط)	المدرسة الكمالية منذ العصر الأتابكي	1219هـ/ 1804م	-	-	أحمد باشا بن بكر أفندي	محلة المكاوي
27	جامع باب الطوب	موضع لجامع قديم	1230هـ/ 1815م	-	-	عبدالله بن جرجيس بطال	سوق باب الطوب
28	جامع زقاق الحصن (جامع زينب خاتون)	مسجد منذ العصر الإيلخاني	1235هـ/ 1819م	-	-	الحاجة زينب خاتون (من جواري الجليليين)	محلة السراجخانة
29	جامع القلعة	1237هـ/ 1821م	هدم	هدمت	1237هـ/ 1821م	أحمد باشا الجليلي	قلعة الميدان
30	جامع الخاتون	1241هـ/ 1825م	1395هـ/ 1975م	-	-	مريم خاتون بنت محمد باشا الجليلي	محلة حوش الخان
31	جامع عبدالله بك	1285هـ/ 1869م	1372هـ/ 1952م	-	-	عبدالله بك بن محمد شريف بك	محلة رأس الكور
32	جامع حمو القدو	موضع لجامع قديم	1298هـ/ 1882م	-	-	عبدالله حمو القدو	الميدان

*بالنسبة لمئذنة جامع حمّو القدّو، راجع هامش (1) في الصفحة قبل السابقة.

إن ما يسترعي الإنتباه أنّ المآذن انقسمت حسب خصائصها التصميمية إلى مجموعتين تتماثل الخصائص ضمن كل منهما، ولا توجد مآذن تجمع بين خصائص المجموعتين بشكل مشترك، وكأنّ كلاً منها تنتمي إلى طراز مغاير عن الآخر. وهذا يمثل انقطاعاً فجائياً بالخصائص يستلزم البحث والكشف عن مغزاه وأسبابه، والدلالة التاريخية له.

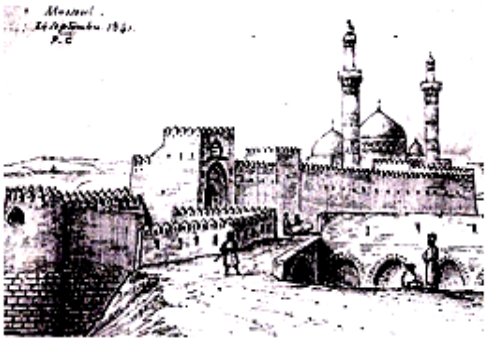

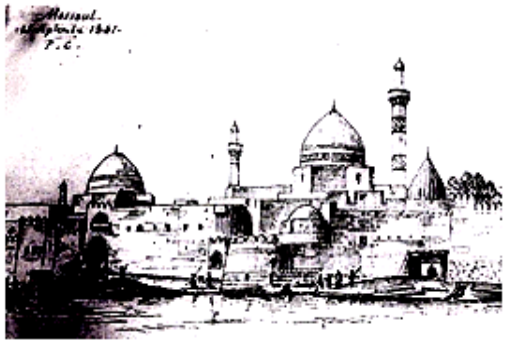

(شكل-4) رسوم لمدينة الموصل للرسام باسكال كوسته عام1841 يظهر بعض مآذن الموصل (المصدر: Wirth، ص91)

جدول (2) الخصائص التصميمية لمآذن الموصل (الباحث)

التسلسل	اسم الجامع	تاريخ إنشاء المئذنة	القاعدة				البدن				الشرفة				العنق				القمة			
			شكل المقطع	مادة البناء	مادة الإنهاء	العناصر التزيينية	شكل المقطع	مادة البناء	مادة الإنهاء	العناصر التزيينية	عدد الشرفات	وسيلة البروز	شكل المقطع	مادة البناء	شكل المقطع	مادة البناء	مادة الإنهاء	العناصر التزيينية	شكلها	مادة البناء	مادة الإنهاء
1	الجامع النوري	1172م	مربع	حجر	طابوق	زخارف هندسية	دائري	طابوق	جص	زخارف هندسية	1	دعامة خشبية	دائري	حديد	دائري	طابوق	جص	زخارف هندسية	قبة	طابوق	جص
2	جامع الشيخ عبدال	1672م	مربع	حجر	طابوق		دائري	طابوق	جص		1	كرابيل	دائري	حديد	دائري	طابوق	جص		قبة	طابوق	جص
3	جامع عمر الأسود	1682م	مربع	حجر			دائري	طابوق		زخارف هندسية	1	كرابيل	دائري	حديد							
4	جامع الجويجي	1695م	مربع	حجر			دائري	طابوق	طابوق	زخارف هندسية	1	كرابيل	دائري	طابوق	دائري	طابوق	طابوق	زخارف هندسية	قبة	طابوق	جص
5	جامع الأغوات	1703م	مربع	حجر			دائري	طابوق	طابوق	زخارف هندسية	1	مقرنص	دائري	حديد	دائري	طابوق	طابوق	زخارف هندسية	قبة	طابوق	جص
6	جامع العمرية	1720م	مربع	حجر			دائري	طابوق	طابوق	زخارف هندسية	1	مقرنص	دائري	طابوق	دائري	طابوق	طابوق	زخارف هندسية	قبة	طابوق	جص
7	جامع الباشا	1758م	مربع	حجر			دائري	حجر	حجر	زخارف كتابية	1	مقرنص	دائري	حديد	دائري	حجر	حجر		قبة	حجر	حجر
8	جامع الزيواني	1779م	مربع	حجر			دائري	طابوق	طابوق	زخارف هندسية	1	كرابيل	دائري	حديد							
9	جامع خزام	1796م	مربع	حجر			دائري	طابوق	طابوق	زخارف هندسية	1	كرابيل	دائري	طابوق	دائري	طابوق	طابوق		قبة	طابوق	جص
10	جامع القلعة	1821م	مربع	حجر			دائري	طابوق	طابوق	زخارف هندسية	1	كرابيل	دائري	طابوق	دائري	طابوق	طابوق		قبة	طابوق	جص
11	جامع النبي جرجيس	1853م	مربع	حجر	حجر		دائري	حجر	حجر		2	كرابيل	دائري	حجر	دائري	حجر	حجر		مخروطي	حجر	حجر
12	جامع النبي شيت	1912م	مربع	حجر	حجر		دائري	حجر	حجر		3	كرابيل	دائري	حجر	دائري	حجر	حجر		مخروطي	حجر	حجر
13	جامع النبي يونس	1921م	مربع	حجر	حجر		دائري	حجر	حجر		2	كرابيل	دائري	حجر	دائري	حجر	حجر		مخروطي	حجر	حجر

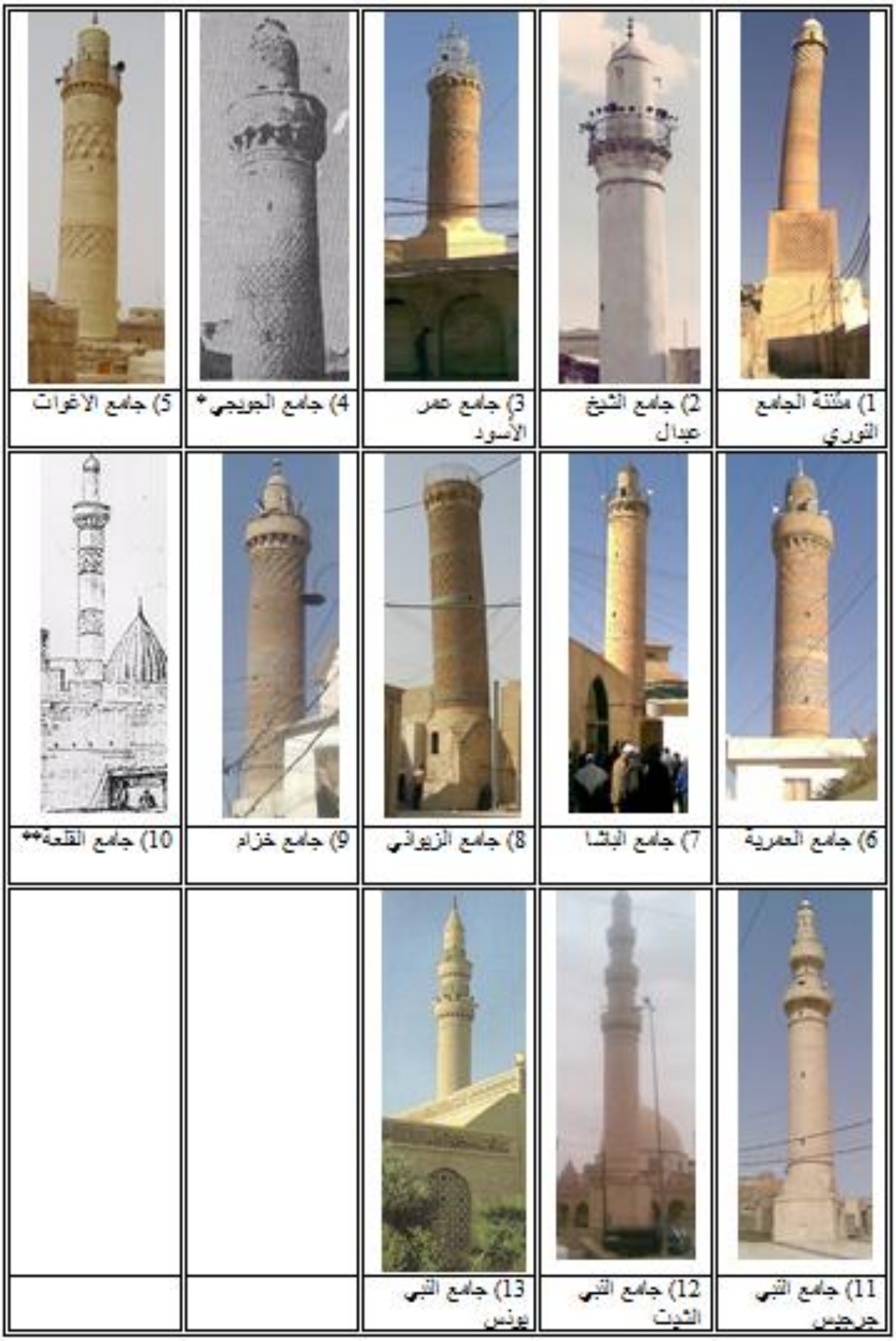

(شكل- 3) مآذن الموصل التي كانت قائمة مع نهاية العصر العثماني – راجع جدول2- (تصوير:الباحث)

***المصدر:الديوه جي1963،ص145، **المصدر:Wirth، 2000، ص91**

3. مشكلة البحث:

مما تقدم وبعد تحديد الخصائص التصميميّة لمآذن الموصل ضمن المستوى التركيبي، يمكن تحديد المشكلة البحثية كالتالي:

الحاجة المعرفية لفهم وتفسير ظاهرتين تخصّان مآذن الموصل، وهما:

- **الأولى**: أنّ 40% من جوامع الموصل فقط لها مآذن، وهي نسبة تتناقض مع ما هو شائع حول تلازم المآذن مع الجوامع.
- **الثانية**: إنّ مآذن الموصل تصنّف حسب خصائصها التصميمية إلى مجموعتين (طرازين) رغم أنها مبنية ضمن فترة زمنية واحدة.

فيما يلي سيتم مناقشة هاتين الظاهرتين، وإذ أنّ الخصائص التصميمية كانت قد حُددت من خلال المستوى التركيبي، فسيتم مناقشة المشكلتين أعلاه ضمن المستويين العملي و الدلالي و ما يستلزمه كل منهما من منهجية بحثية، بالرغم منم أنّ المستويات الثلاثة أعلاه متداخلة ويؤثر بعضها على الآخر (Broadbent, p187) و (قاسم،ص45).

1.3.تأثير محددات الشريعة في بناء المآذن:

بالنسبة للظاهرة الأولى، يمكن افتراض العديد من التفسيرات المحتملة لها:

فقد يعتبر البعض أنّ بناء المآذن يكون في الجوامع التي يبنيها الحكام فقط(محمد،ص55)، لكن بالرجوع إلى جدول (1) يُلاحظ أنّ بعض الجوامع التي كان لها مآذن لم تُبن من قبل الجليليين حكام الموصل آنئذ (مثل جوامع: العمرية، الجويجاتي، الشيخ عبدال، وعمر الأسود...) بالمقابل فأنّ بعض الجوامع التي بناها الجليليون لم يكن لها مآذن (مثل جوامع: النعمانية، الرابعية، وسوق العلوة).

أما إذا أُفترض أنّ الإرتفاع العالي لقبة المصلّى في عدد من الجوامع يعوّض عن تشييد المئذنة (الطيّب، ص126)، لوُجد من مراجعة التوثيق الهندسي لبعض الجوامع (مكتب الإنشاءات) أن قبة مصلى جامع الباشا مرتفعة جداُ (21.5 متر) وهي أوطأ من إرتفاع المئذنة(24متر) ب2.5 متر فقط (ذنون وآخرون، ص71) أو أنّ جامع جمشيد فيه قبة المصلى واطئة (11متر) ومع ذلك فليس للجامع مئذنة (السابق، ص36).

أو قد يُفترض أنّ المآذن بُنيت للجوامع التي كان لها مساحة واسعة، لكن يُلاحظ أنّ جامع الرابعية الذي ليس له مئذنة أكبر مساحة من جامع الشيخ عبدال الذي له مئذنة.

أمّا إذا أُفترض أن المآذن تُبنى في الجوامع التي تضم أكثر من وظيفة (كالمشاهد) لوُجد أنّ بعض الجوامع فيها مشاهد ومع ذلك ليس فيها مئذنة (مثل جامع السلطان ويّس وجامع الإمام الباهر) في حين أنّ أغلب الجوامع التي لها مئذنة ليس فيها مشاهد.

وهكذا يبقى الإفتراض الأرجح هو إفتراض تأثير أحكام الشريعة الإسلامية. فمن المعروف أنّ الشريعة الإسلامية كانت المؤثر الأول في تشكيل النسيج الحضري للمدن الإسلامية (Hakim,1986) و (أكبر،1995) وكانت المؤثر الأول في تشكيل أنماط بنائية معينة ضمن ذلك النسيج (العمري،2000).

وفيما يتعلق بتأثير محددات الشريعة في بناء المآذن، فقد تطرقت الكثير من الدراسات لبعض من تلك المحددات معتمدة على الوقائع التاريخية والنوازل الفقهية (Mohammad,p1-3) و (Hakim,p37) و (العاني، ص13-14) و (محمد، ص60) و (أكبر،1995) و (قاسم، ص19-20) ويتبين من كل تلك الدراسات أنه لايوجد موقف عملي محدد في الشريعة الإسلامية للمآذن من حيث تفضيل شكل معين أو إضفاء رمزية معينة وإنما يُستحب فقط رفع الإذان من مكان مرتفع بشرط أن لايؤثر وقوف المؤذن باشرافه على خصوصية السكان إنطلاقاً من مبدأ منع الضرر المعروف في أحكام الشريعة (أكبر، ص200،215). وقد تمثلت بعض التقييدات بالتالي:

- يُمنع أن يؤذن في المئذنة إلا رجل عدل ثقة
- يُمنع المؤذن من صعود المئذنة غير وقت الأذان
- حدد بعض الفقهاء أن يكون المؤذن الصاعد للمئذنة متزوجاً لأنه أغض للبصر
- ذهب بعض المحتسبين لأن يأمر بأن يكون المؤذن الصاعد للمئذنة معصوب العينين وقت الأذان أو أن يكون أعمى
- حدد بعض الفقهاء أن تكون المئذنة خالية من الفتحات وأن يكون مدار الشرفة عالياً أعلى من قامة المؤذن
- هناك مآذن –خصوصاً في المشرق الإسلامي- لا تستعمل للأذان (Prochazka, p59-61)

إنّ كل تلك الإحتمالات أعلاه تعتمد على تطور أعراف كل منطقة من أجل الفائدة العامة في منع الضرر(أكبر،ص217).

أمّا موقف العلماء من بناء المئذنة إن تقدمت في وجودها على الدار غير الموقف إن لحقت به، (فإذا كانت الدور مبنية ثم جاء بعض الناس أن يعمل المنار فانه يُمنع من ذلك لأنه يكشف عليهم، اللهم إلا أن يكون بين المنار والدور سكك - أي طرق- وبُعد بحيث أنه إذا طلع المؤذن على المنار ورأى الناس على أسطح بيوتهم لايميّز بين الذكر والأُنثى منهم فهذا جائز على ما قاله العلماء) (العاني،ص16). وهذا يُسمّى في الشريعة الإسلامية بـ **"حيازة الضرر"** (أكبر،ص24) وهو حق بقاء العقار القديم حتى لو كان فيه ضرر على الآخرين.

أمّا هدم المئذنة فكان من اختصاص الخليفة نفسه، فاذا وُجدت حاجة لإزالة مئذنة متهدمة أو آيلة للسقوط؛ شُكّلت لجنة من البنائين وأهل الخبرة لفحصها وبموافقة القاضي تُرفع القضية إلى الخليفة لإتخاذ القرار اللازم بشأنها (محمد،ص60).

وإذ أنّ معظم المآذن المتبقية في الموصل من العصر العثماني (راجع جدول2) وكون القضاء في العصر العثماني استمر بالإعتماد على الشريعة الإسلامية كأساس للنظام القضائي في الولايات التابعة للسلطنة العثمانية (العدول،ب،ص207)، يمكن وضع **الفرضية الأولى للبحث** الأولى وهي:

تحدد بناء المآذن في المواقع التي لا تؤثر فيها على خصوصية السكن تبعاً لأحكام الشريعة الإسلامية في منع ضرر إمكانية إشراف المؤذنين على المساكن.

2.3.تغيّر الطراز المعماري للمآذن:

فيما يتعلق بالظاهرة الثانية التي تتعلق بتصنيف مآذن الموصل الى مجموعتين (طرازين)، سيتم التطرق للبحث في مصادر الشكل المعماري وطرق تكونه، وهو موضوع واسع أوسع من مدى هدف هذا البحث، ولعل من أشهر التصنيفات لمصادر اشتقاق الشكل المعماري في الأدبيات المعمارية تلك التي اقترحها (Broadbent,p193) وهي:

التصميم العملي، التصميم النمطي، التصميم الايقوني، التصميم الهندسي....

وإذ أنّ مظاهر الحضارة في العصر العثماني في الموصل لا يعدّها المنظرون نابعة من إبداعات أصيلة بقدر ما هي اتباع لأنماط فكرية سابقة ومتبلورة منذ ازدهار الحضارة الإسلامية في ذروتها في العصر العباسي (الجميل،ص312) وما ينعكس من ذلك على المظاهر المعمارية، فيمكن اعتبار أنّ طريقة التصميم النمطي هي التي كانت سائدة. أما التصميم العملي فلا يبدو أنه هو المؤثر في تغيّر تصاميم الأشكال المعمارية للمآذن بسبب أنّ وظيفة المئذنة باقية لا تتغير. والتصميم الايقوني لا يبدو أنه من الوسائل المتبعة بشكل عام في العمارة الإسلامية (Broadbent,p193).

وهكذا يمكن القول أنّ أشكال المآذن في الموصل في العصر العثماني كانت تتبع أنماطاً معينة، وسبب اختيار شكل معين يعتمد على الموقف العقلي والنفسي والإدراكي للمُلاحظ beholder سواءً كان مُنتجاً (بنّاء أو معمار) أو متلقيّاً. وكذلك الحال بالنسبة لتغيّر الشكل المعماري، فانّه يكون نتيجة تغيّر إدراكي (إجتماعي أو ثقافي) معيّن، بحيث صار من اللازم تغيّر ذلك الشكل (Grabar,p4-6).

وبالنسبة لمآذن الموصل، وحسب ما صُنّفت خصائصها التصميميّة وفق الجدول (2) ووضوح تصنيفها ضمن مجموعتين؛ يمكننا الإستفادة من التعامل بهذه الصيغة مع الخصائص التصميميّة لإجراء مقارنة مع مجموعات أُخرى من المآذن. إنّ المجموعة الأولى كلها مبنيّة في العصر العثماني –عدا مئذنة الجامع النوري العائدة للعصر العباسي، وهي ليست المئذنة الوحيدة الباقية من العصر العباسي في الموصل فحسب؛ وإنما هي من المآذن القليلة الباقية من ذلك العصر في العراق والعالم الإسلامي عامة. وهي تتميّز بارتفاعها الشاهق وغنى ودقة زخارفها الآجريّة، وصلابة بنائها الذي جعلها قائمة منذ ثمانية قرون، فهي تعكس المستوى الحضاري للعصر الذي أُنشئت فيه. وهي مشابهة بخصائصها للمآذن التي بُنيت في ذلك العصر وما بعده، مثل: ومآذن أربيل وسنجار وداقوق ومآذن بغداد الباقية من العصر العباسي (سلمان وآخرون،ص 148، 183، 187، 197، 201، 208).

وهكذا يمكن بوضوح اعتبار أنّ مئذنة الجامع النوري "الحدباء" كانت المثال و**النمط** الذي بُنيت على منواله باقي مآذن الموصل. والمعروف أنّ تشكّل أنماط معمارية معينة ثمّ تحويلها إلى مثال أو نمط رئيسي archetype من المظاهر المعروفة في العمارة الإسلامية (العمري، ص26-37).

أما المجموعة الثانية؛ وبمقارنة خصائصها نلاحظ أنها تشابه خصائص المآذن التركية العثمانية: بتعدد شرفاتها وخلو سطوحها من الزخارف وقممها المخروطية. (الجداول من 1- 20 من الملحق (2) وملاحظة أشكال المآذن في الملحق (1)

في دراسة قاسم). إنّ الإنتقال المُفاجئ من تصميم نمطي معيّن إلى آخر لابد أنه كان نتيجة تغيّر ثقافي أو إجتماعي أو سياسي معين (Grabar,p2-12)، لكن لماذا حصل هذا التغيير في نفس العصر؟ ولماذا كان مباشراً ومُفاجئاً ولم يكن متدرّجاً؟ لقد تمّ التأثر بالمآذن التركية في الأقطار الأخرى، فالتأثير كان عن طريق دمج الخصائص التصميمية للمآذن التركية مع خصائص المآذن المحلية (مثل مآذن الشام وبعض مآذن تونس) (الجداول 1-20 في الملحق (2) وأشكالها في الملحق (1) في دراسة قاسم). وقد كان ذلك دلالة على محاولة السلطات التركية إضفاء الصفة العثمانية على الولايات التابعة لها (Kafesçioglu,p91) أما في مصر، فكان تبادل ظهور المآذن ذات الخصائص التصميمية المحلية مع تلك ذات الخصائص التصميمية المشابهة للمآذن التركية متناوباً، وقد عدت كثير من الدراسات ذلك دلالة على الأحداث التاريخية السياسية والثقافية لتلك الفترة، فمن المعروف أنه بسيطرة العثمانيين على مصر، تناوب على حكمها ولاة يتم تعيينهم إما بشكل مباشر لولاة أتراك، أو إختيار ولاة مصريين، وقد كان واضحاً عندما يكون الوالي تركياً فإنه يبني مئذنة ذات خصائص تركية، بينما عندما يكون الوالي مصرياً، فإنه يبني مئذنة ذات خصائص محلية – خصوصاً مآذن العصر المملوكي (Behrens-Abusief,pp22,152-169) .

من كل ما تقدم، يمكن صياغة **فرضية البحث الثانية** كالتالي:

إنّ مآذن الموصل التي بُنيت بطرازين معماريين في العصر العثماني، أحدهما يتبع الخصائص التصميمية للمآذن المحليّة السابقة تأثراً بالثقافة المحلية، والآخر يتبع خصائص المآذن التركية تأثراً بالحكم العثماني وبالثقافة السائدة آنئذ، وأنّ ذلك التغيّر كان دلالة على تغيّر سياسي و ثقافي ضمن العصر نفسه.

1.4.تأثير محددات الشريعة في مواقع مآذن الموصل:

للتحقق من الفرضية الأولى، وهي أنّ بناء المآذن يتحدد في المواقع التي لا تؤثر فيها على خصوصية السكن تبعاً لأحكام الشريعة الإسلامية في منع ضرر إمكانية إشراف المؤذنين على المساكن،

(شكل- 5) مخطط الموصل القديمة مبيّناً مواقع الجوامع (الباحث)

وإذ أنّ هذا الموضوع يمكن أن يصنّف ضمن المستوى العملي عند معاملة العمارة كلغة، فإنّ من الوسائل الممكن اتباعها هو مسح مواقع كل الجوامع التي لها مآذن ضمن النسيج الحضري للموصل القديمة، وعلاقتها مع مجاوراتها. وإذ أننا نتعامل مع أبنية تراثية، فإنّ المسح المطلوب يجب أن يكون ضمن سياقه التاريخي، أي يجب تصور تلك المواقع تبعاً لزمن بناء تلك الجوامع، وذلك قد يتطلب الرجوع إلى نصوص تاريخية. وهكذا سيُعتمد المسح surveying وتحليل النصوص

text analysis كوسيلتين للتحقّق من الفرضية الأولى، وهما من الوسائل المتبعة لدراسة المستوى العملي للعمارة (قاسم،ص25).

يبيّن لنا (الشكل- 5) خارطة لمدينة الموصل القديمة مُؤشراً عليها حدود المحلات القديمة، ومناطق الأسواق، وموضع سور المدينة القديم. كما حُددت عليها مواقع الجوامع التي لها مآذن (دائرة غامقة) والجوامع التي ليس لها مآذن (دائرة فاتحة). وفيما يلي تتبّع لمواقع الجوامع التي لها مآذن وبيان كيف أنها لا تؤثر على ما يجاورها من مبان سكنية، وفي الحالات الإستثنائية ستتم محاولة الرجوع إلى أحداث تاريخية معينة لبيان وضعيتها الأصلية :

1- يُلاحظ أنّ كلاً من جامع **الشيخ عبدال** وجامع **الأغوات** وجامع **الباشا** تقع في منطقة الأسواق الواقعة جنوب شرق المدينة المطلة على نهر دجلة.

2- جامع **القلعة** يقع ضمن القلعة التي كانت مُحاطة بقناة ماء متفرعة من نهر دجلة، فقد كانت مجمعاً كاملاً لأبنية الحكم والإدارة ويفصلها الميدان عن المنطقة السكنية المجاورة (الديوه جي، ب، 1982 ص103).

3- جامع النبي شيت وجامع النبي يونس يقعان خارج أسوار المدينة.

4- هناك الجوامع المُحاذية لسور المدينة وقرب أحد أبوابها، فجامع **العمرية** يقع مُحاذياً للباب الجديد، وجامع **الزيواني** يقع مُحاذياً لباب البيض، وجامع **خزام** يقع قرب باب الكش (عن سور الموصل وأبوابها راجع : الديوه جي، ب، 1982، ص9-36). ولئن كان الجامع الأخير (خزام) يقع بشكل أقرب للداخل، ففقد يكون قد بُني بشكل أسبق من المنطقة السكنية، ثمّ بُنيت المنطقة السكنية حوله لأن اسمه غلب على اسم المحلة (الديوه جي،1963 ص140). إذ أنّ مبدأ حيازة الضرر – الذي تقدم ذكره- يعطي الأولوية لما هو مبني أولاً. ومن الجدير بالذكر أنّ بعض المدن الإسلامية قد عرفت ظاهرة الجوامع التي تحاذي مآذنها بوابات المدينة (مثل مئذنتي جامع المؤيد مع باب زويلة في القاهرة، ومئذنة الباب الشرقي في دمشق).

5- بالنسبة لكل من الجامع **النوري** وجامع **النبي جرجيس** وجامع **عمر الأسود** فإنّها كانت قد بُنيت وقت إنشائها في منطقة أسواق، ثمّ تحوّل مكان السوق، فمن المعروف أنّ مدينة الموصل قد تميزت عن غيرها من المدن الإسلامية بتحوّل مركزها الإداري والتجاري عدة مرات تبعاً للعصور التاريخية التي مرت بها. و(الشكل- 6) يبيّن لنا ذلك التغيّر (ممتاز الديوه جي،ص63). فمن المعروف أنّ الجامع **النوري** قد بُني في منطقة قرب الأسواق في الفترة الأتابكية، وكذلك عندما بُني جامع **النبي جرجيس** في الفترة الإيلخانية – بعد أن كان مشهداً فقط- فإنّه بُني في منطقة الأسواق آنئذ (الديوه جي،1963 ، ص110). أما جامع **عمر الأسود** فإنه يقع في منطقة **"شهرسوق"** ، والتي كانت في زمن سابق منطقة سوق تقع عند تقاطع أربعة طرق – أصلها جهارسوق بالفارسية- (الديوه جي، أ، 1982، ص179). واتباعاً لمبدأ حيازة الضرر، تبقى المئذنة وإن كانت تؤثر في المنازل لأنها أسبق منها. ومع ذلك فمن التقييدات التي قُيّدت بها هذه المآذن أنّ مئذنة الجامع النوري لم تكن تُستعمل للأذان لحين إعادة بناء الجامع في عام 1944 (من حوار الباحث مع بعض المعمّرين من سكنة تلك المنطقة). أمّا جامع النبي جرجيس؛ فنظراً لموقعه في مركز المدينة الفيزياوي، ونظراً لإرتفاع مئذنته التي كانت أعلى مئذنة بعد مئذنة الجامع النوري، فقد كانت المئذنة الأساسية في إعلان الأذان، فبعد أن يحدد الموعد تبعاً لمزولة كانت في فناء الجامع، كان يُؤذن في مئذنته أولاً، ثم تتبعه بقية الجوامع، إما بسماع صوت المؤذن، أو عن طريق رؤية علم أخضر يطوف به رجل متخصص بذلك، وكان يُلقب بـ "شيّال العلم"، وقد أصبحت هذه المهمة متوارثة في أبناء عائلة عُرفت بهذا الاسم، وكان ذلك الشخص مسؤولاً عن الطواف بالعلم مع وقت الأذان، بالاضافة إلى شهرته وسمعته بالأمانة والإخلاص (من حديث الباحث مع بعض من أبناء تلك العائلة).

6- أخيراً فإنّ جامع الجويجي، والذي يقع في موضع بين الباب الجديد وبين منطقة شهرسوق –اللذين تقدم ذكرهما-، فإمّا أنّ موقعه كان سابقا مكاناً عاماً يربط بين البوابة والسوق، أو أنه كان محاذياً لباب قديم للمدينة

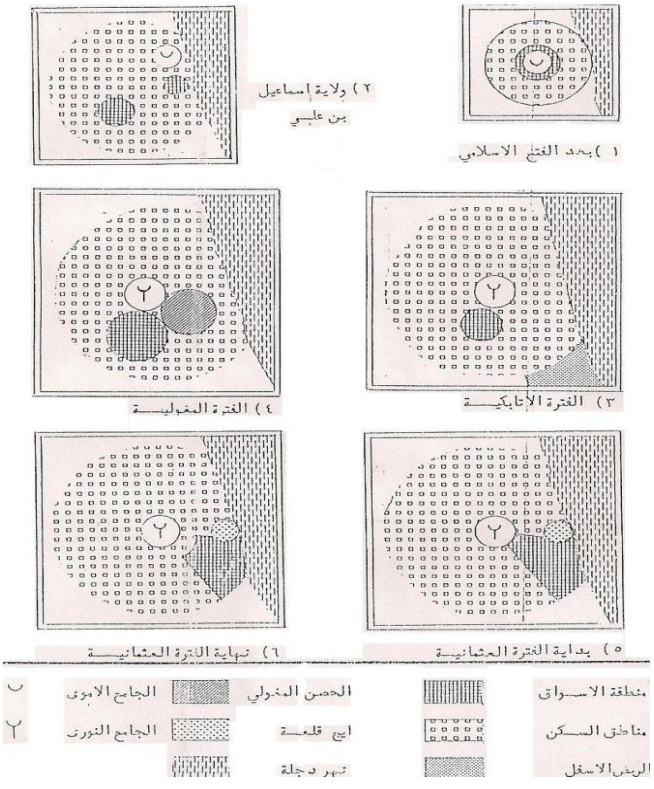

(شكل- 6) تغيّر موقع مركز مدينة الموصل عبر العصور (المصدر:ممتاز الديوه جي،ص63)

– وهو باب العراق- الذي حلّ محله بعد توسّع المدينة إلى الخارج الباب الجديد (الديوه جي، ب، 1982، ص34).
من كل ما تقدم يتبيّن لنا صحة الفرضية المتعلقة ببناء المآذن للجوامع التي تقع في مواقع لا تؤثر في خصوصية المساكن، إمّا في منطقة الأسواق الرئيسية، أو ضمن القلعة، أو محاذية لسور المدينة وبوّاباتها، أو كانت في مكان سوق – أو مكان عام- سابقاً ثمّ تغيّر إستخدام المجاورات وأصبحت سكني، لكن تبقى المئذنة مشيّدة لأسبقيّتها باتباع مبدأ حيازة الضرر.

2.4.دلالة تغيّر طراز مآذن الموصل:

للتحقّق من الفرضية الثانية، وهي أنّ مآذن الموصل التي بُنيت بطرازين معماريين، أحدهما يتبع الخصائص التصميمية للمآذن المحلية للعصور السابقة، والآخر يتبع الخصائص التصميمية للمآذن التركية العثمانية، وذلك تأثراً بالتغيير في الثقافة والأوضاع والسياسية السائدة، إنّ هذا الموضوع يصنّف ضمن المستوى الدلالي عند معاملة العمارة كلغة... هناك العديد من التوجهات والمفاهيم التي طُرحت لدراسة المعنى والدلالة في العمارة وطريقة ارتباط المعنى بالشكل وعلاقة ذلك بالظروف التاريخية والثقافة السائدة، مثل(Grabar, 1973) (Bonta,1979) و (Broadbent, bunt & Jencks,1980) و (خياط، 2001)، فالدراسات تتفق على وجود ثلاثة جوانب لتلك العملية، وهي: الأشكال المعمارية form، والمعنى المُضفى عليها meaning، وكلاهما يعتمد على ذهنية المُلاحظ beholder،(Grabar, p4-6).و ذلك الارتباط بين الشكل والمعنى يعتمد على الإتفاق -أو التعاقد- الإجتماعي لمجتمع ما (Broadbent et al.,PP314-328). وكذلك فإن ارتباط معنى أو دلالة ما بأشكال معمارية معينة يكوّن **العرف** الذي هو المادة الخام التي ينشأ على أساسها التراث المعماري (خياط، ص80). والعرف المعماري وما يتضمنه من معاني أودلالات لها دورة زمنية تمر بعدة مراحل تتدرج من: عدم الفهم، الى انتشار الفهم ثم النسيان، وقد يمر بدورة جديدة بإعادة التشكل من جديد (Bonta, pp131-220) و (خياط، ص80 و ص93)، وبصورة عامة فإنّ الأعراف المعمارية ودلالاتها تتجاذبها قوى التغيّر والثبات (خياط، ص81) وذلك مرتبط بالتغيّر الثقافي للمجتمع (نفسه، ص109).

وانطلاقاً ممّا تقدم، ونظراً لأنّ المآذن قيد الدراسة قد بُنيت في عصر واحد هو العصر العثماني – عدا واحدة بُنيت بعده مباشرة- ، وللوصول لمعرفة أفضل للدلالة التي تحملها المآذن، يستلزم التوقف للإحاطة بشكل موجز لأهم الملامح الثقافية والسياسية السائدة في الموصل آنئذٍ، وذلك باستخلاصها من الدراسات التاريخية المتخصصة بتلك المجالات، ويمكن إيجازها كالتالي:

تميزت فترة **الحكم** العثماني للموصل بثلاث فترات، هي:

- **الفترة الأولى: بين (1516-1726)** والتي تميّزت في البداية بعدم الإستقرار بسبب المنافسة مع الصفويين، ثم شهدت نوعاً من الإستقرار والهدوء وازدياد قدوم السكان إليها، خاصة العديد من العوائل العربية من المناطق المجاورة ، وتولى الحكم خلالها عدة ولاة بعضهم تركي وبعضهم عربي من أهل المدينة (مراد، ص16-19).
- **الفترة الثانية: بين (1726-1834) (الفترة الجليلية)** إذ شهدت المدينة حكماً ذاتياً من قبل الولاة المحليين، وأغلبهم من العائلة الجليلية، واعتماد هؤلاء الولاة على موظفين من أهالي المدينة (Masters, p193-196). وتميّزت هذه الفترة بالإزدها رالإقتصادي والإجتماعي والثقافي، وتمتعت بالهدوء والإستقرار (الجميل،أ، ص5-15).
- **الفترة الثالثة: بين (1834-1918)** تميّزت برجوع المدينة للحكم المباشر من العاصمة اسطنبول، وتعيين ولاة أتراك للمدينة ارتباطهم المباشر بالعاصمة ومحاولتهم فرض السلطة المباشرة ولو بشكل قسريّ، وتأثرت الموصل بما كان يحصل للدولة العثمانية بشكل عام في هذه الفترة من محاولات التحديث من جهة، وما تعرضت له من تدهور ومشاكل داخلية وخارجية من جهة أُخرى، وما تبع ذلك من صعوبات اقتصادية واجتماعية لاهالي المدينة (العدول، ص95-108).

أما ما يتعلق بالبيئة **الفكرية والثقافية**، فيمكن تلخيصها كالتالي:

الفترة الأولى التي كانت فترة بداية استقرار وإعادة تأسيس، إذ تميزت بإعادة تأسيس المدارس والمؤسسات الثقافية من جديد، وقد تمت إعادة تأسيس الحياة الفكرية بالعودة إلى جذور الفكر العربي الإسلامي من العصور الإسلامية المزدهرة كما هي، لكن لم يكن هناك إهتمام بالمجالات الفكرية الأخرى مثل: التاريخ أو الأدب أو الطب (إبراهيم، ص295-297).

الفترة الثانية وهي فترة الحكم الجليلي التي تميّزت ببروز الهوية المحلية للمدينة بشكل واضح، و تميزت هذه الفترة برغبة الحكام الجليليين ومثقفي المدينة بإضفاء الطابع المستقل عن المركزية العثمانية، وإضفاء شخصية وهوية للمدينة هي إمتداد وإعادة إحياء لتراث المدينة في العصر العباسي، وبالذات للفترة الأتابكية التي أُعتبرت المرجع الحضاري والفكري للمدينة. وهكذا أصبحت اللغة العربية اللغة الرسمية لدواوين الولاية وأعمالها، وتكاد تكون الولاية العربية الوحيدة التابعة للحكم العثماني آنئذٍ التي عرّبت الدواوين (أحمد، ص299).وكذلك ظهر إهتمام كبير بإحياء الشعر العربي القديم، وظهرت طبقة من الشعراء اللذين تميّزت أساليبهم بالنضج. وقد تفوّق الشعر العربي في الموصل بمعطياته الأدبية على غيره من شعر

المدن العربية الأخرى خاصة في القرن الثامن عشر، كما ظهر الإهتمام بالمجالات المعرفية المختلفة كالتاريخ والطب بالإضافة للإهتمام بالعلوم الشرعية واللغوية (الجميل، ب، ص317).

الفترة الثالثة وهي فترة عودة الحكم العثماني المباشر الذي تميّز بعودة الإرتباط المباشر للمدينة بالعاصمة اسطنبول، وتوليّ الولاة الأتراك للحكم وإعادة فرض إستخدام اللغة التركية في المعاملات الرسمية، وتأسيس مدارس حديثة لكنها تستخدم اللغة التركية (أحمد، ص305-307). وكانت محاولات الولاة تنصب على فرض مظاهر الثقافة العثمانية-التركية ولو بشكل قسري. ومع ذلك، شهدت هذه الفترة بدايات التحديث في الحياة العامة في المدينة وتمسك مثقفي المدينة وأدباؤها بهوية المدينة العربية الإسلامية الخالصة، وقد تحول ذلك إلى معارضة سياسية وفكرية للوضع الاعام المتدهور في الدولة العثمانية عامة (الجميل، ب، ص326-238).

من كل ما تقدم، يمكن الربط بين تلك الأحداث وما تعنيه من معنى وبين أشكال المآذن التي بُنيت بطرازين مختلفين، ومن مراجعة تواريخ إنشاء المآذن – راجع جدول (2)- يتبيّن أنّ:

- **المجموعة الأولى**: من مئذنة جامع عمر الأسود (1682) إلى جامع القلعة (1821)، التي خصائصها المعمارية تشابه خصائص المآذن المحلية قد بُنيت في الفترتين الأولى والثانية، وكما تقدم فإنّ الوضع السياسي العام والبيئة الثقافية كانا متكاملين بين تلك الفترتين: فترة التأسيس وفترة الإزدهار.
- أمّا **المجموعة الثانية** التي خصائصها المعمارية تشابه خصائص المآذن التركية، قد بُنيت في الفترة الثالثة فترة الحكم التركي المباشر، وهي مئذنة جامع جرجيس (1853) ومئذنة خامع النبي شيت (1912)، اما مئذنة جامع النبي يونس فقد بُنيت مباشرة بعد هذه الفترة (1921). ويُلاحظ أنّ كلاً من جامعي النبي جرجيس والنبي يونس كان لهما مئذنتين أقدم من هاتين الحاليتين سقطتا وكانتا - حسب الديوه جي (1963) ص89،ص123 – مبنيتان من بالطابوق، وتبيّن صورة لأحد المستشرقين لجامع النبي يونس أنّ المئذنة السابقة كانت تشابه المجموعة الأولى ذات الخصائص المحلية (نفسه،ص90).

وكما تقدم، فإنّ البيئة الثقافية في الفترتين الأولى والثانية (مآذن المجموعة الأولى) تميّزت بإعادة إحياء هوية المدينة المحلية، والتي مرجعيتها الأساسية مستمدة من الفترة الأتابكية من تاريخ الموصل، واعتماد اللغة العربية في المعاملات الرسمية للولاية، وازدهار الشعر والثقافة العربية الأصيلة، وانعكس ذلك في تبنّي نمط محلي لشكل المآذن الذي اتخذ مئذنة الجامع النوري (منارة الحدباء) كنمط أساسي archetype وهي مئذنة تميزت – وعلى مستوى العالم الإسلامي- بشموخها ودقة تفاصيلها وقوة إنشائها، وقد بُنيت في تلك الفترة الأتابكية، فحاول البناؤون الموصليون – تبعاً لرغبة النخبة من أبناء المدينة- تقليد معظم الخصائص التصميمية لتلك المئذنة، بغض النظر عن المقياس الذي لم تسعفهم التقنيات البنائية والإمكانية الإقتصادية في مجارات مقياسها. ويتبّن بوضوح العلاقة المباشرة بين المنتج المعماري وبين البيئة الثقافية العامة.

أما الفترة الثالثة (مآذن المجموعة الثانية) فقد تميّزت البيئة الثقافية – كما تقدم- بالمحاولة القسرية لربط كل مجالات الحياة مباشرة بالعاصمة اسطنبول، وفرض اللغة التركية في المعاملات الرسمية، وتحول الثقافة المحلية الى موقف المعارض، كل ذلك يفسر بوضوح لماذا حصل الإنقطاع المباشر في طراز المآذن وتحوله إلى تقليد خصائص طراز المآذن التركية كنمط رئيسي.

وبذلك تتضح صحة الفرضية الثانية في أنّ تغيّر طراز المآذن في الموصل قد ارتبط بالظرف التاريخي لإنشائها ونتيجة البيئة الثقافية والسياسية آنئذ.

5.الإستنتاجات:

1.5.الاستنتاجات المتعلقة بالحالة الدراسية حول مآذن الموصل:

- إنّ جوامع الموصل التي لها مآذن تشكّل نسبة (40%) من مجموع الجوامع - والتي ظلت قائمة مع بدء العصر الحديث- الكلي للمدينة. وكان عددها (13) مئذنة كلها مبنية في العصر العثماني وواحدة فقط متبقية من العصر العباسي.
- تميّزت مآذن الموصل حسب خصائصها التصميمية بأنها تنتمي لطرازين: **الأول** يمثل خصائص المآذن المحلية من العصور السابقة – بالذات العصر الأتابكي للموصل- ، **الثاني** يتمثل في أنّ خصائصه تشابه المآذن التركية العثمانية.
- كانت محددات الشريعة الإسلامية (والتي كانت مصدر القوانين الأساسي) المحدد الرئيسي لتواجد المآذن في الجوامع، إذ وُجدت المآذن في المواقع التي لاتؤثر في خصوصية السكن منعاً لإمكانية إشراف المؤذنين على السكان. إذ أنّ المآذن كانت متواجدة في الأسواق أو محاذية للسور أو في موقع كانت قديماً مناطق عامة.

- ظهرت المآذن ذات الطراز المحلي الموصلي في الفترة الزمنية التي تميّزت بالإستقلال الذاتي للمدينة وإدارتها من قبل ولاة محليين واستخدام اللغة العربية رسميّاً، وإحياء مظاهر الثقافة المحلية للمدينة والممتدة جذورها منذ العصر العباسي. وكانت مئذنة الجامع النوري (المنرة الحدباء) وهي المئذنة الوحيدة الباقية من العصر العباسي (الفترة الإتابكية للمدينة) قد صارت النمط الرئيس الذي تحاكيه بلقي المآذن.
- ظهرت المآذن ذات الطراز المتأثر بالمآذن التركية في الفترة الأخيرة التي حكمها ولاة أتراك، ورجوع المدينة للحكم العثماني المركزي المباشر، واستخدام اللغة التركية رسمياً، وتحول الثقافة المحلية الى وضع المعرضة.

2.5. الاستنتاجات العامة المتعلقة بالمنهجية التي اتبعت لدراسة هذه الحالة للعمارة الإسلامية:
- تعد الإستنتاجات أعلاه مثالاً للتأثير المتبادل لمختلف العوامل التي تؤثر في العمارة والتي يمكن أن تكون تركيبية (الخصائص التصميمية للمآذن) أو عملية (تأثير محددات الشريعة الإسلامية) أو دلالية (تأثير البيئة السياسية والثقافية).
- يمكن التوصل إلى فهم أفضل للعمارة التاريخية من خلال تحليل خصائصها المعمارية، وإمكانية تفسير تلك الخصائص بالرجوع قدر الإمكان إلى مختلف العوامل التاريخية التي أثرت فيها فترة بنائها.
- تعزّز الإستنتاجات أعلاه أحد أهم المزايا للعمارة الإسلامية المتمثلة في الوحدة والتنوع، **فالوحدة** متمثلة في تواجد نفس العناصر الوظيفية (وهي المآذن في هذا البحث) وتأثرها بنفس المحددات (محددات الشريعة الإسلامية) في عموم العالم الإسلامي وعبر العصور، و**التنوع** المتمثل في الأشكال والطرز تبعاً للبيئة الثقافية والأعراف المحلية وتبعاً للظرف التاريخي.

6.التوصيات:

- من أجل تعزيز النتائج التي توصل لها البحث؛ يوصى باجراء بحوث مماثلة على مآذن المدن الإسلامية الأُخرى.
- على المصممين المعماريين الأخذ بهذه النتائج بنظر الإعتبار عند تصميم المآذن الجديدة، خصوصاً في مدينة الموصل بالرجوع الى إعادة توظيف الخصائص المعمارية التي فُصّلت في متن البحث، وخصوصاً مآذن المجموعة الاولى التي تمثل العمق التاريخي المحلي للموصل.

المصادر:

- أحمد، إبراهيم خليل، (1992)، **الحياة الفكرية في الموصل إبان العهد العثماني**، في: موسوعة الموصل الحضارية، ج4، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، الموصل.
- أكبر، جميل عبد القادر، (1995)، **عمارة الأرض في الإسلام**، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار البشير، عمّان.
- التوتونجي، نجاة يونس، (2000)، **مآذن من الموصل- دراسة في عمارتها وزخارفها**، في: سومر، مجلد 50، الهيئة العامة للآثار والتراث،بغداد.
- الجميل، د.سيّار كوكب، (أ) (1992)، **الموصل خلال الحكم الجليلي**، في: موسوعة الموصل الحضارية، ج4، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، الموصل.
- الجميل، د.سيّار كوكب، (ب) (1992)، **طبيعة الحياة الثقافية والعلمية في الموصل** ، في: موسوعة الموصل الحضارية، ج4، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، الموصل.
- خيّاط، محمود أحمد بكر، (2001)، **الأعراف المعمارية:دراسة في بنية المضمون**، اطروحة دكتوراه، قسم الهندسة المعمارية، الجامعة التكنولوجية، بغداد.
- الديوه جي، سعيد، (1963)، **جوامع الموصل في مختلف العصور**، مطبعة شفيق، بغداد.
- الديوجي، سعيد،(أ) (1982)، **تاريخ الموصل**، المجمع العلمي العراقي، بغداد، مطبعة جامعة الموصل.
- الديوه جي، سعيد،(ب) (1982)، **بحث في تراث الموصل**، المؤسسة العامة للآثار والمتاحف والتراث، بغداد، مطبعة جامعة الموصل.
- الديوه جي، ممتاز حازم،(1989)، **التجديد الحضري لأسواق الموصل القديمة**، رسالة ماجستير غير منشورة في التخطيط الحضري ، مركز التحسس النائي، جامعة الموصل.
- ذنون، يوسف وآخرون،(1983)، **العمائر الدينية في مدينة الموصل**، مكتب الإنشاءات الهندسي، الموصل و المؤسسة العامة للآثار و التراث، بغداد.
- سلمان، عيسى وآخرون، (1982)، **العمارات العربية الإسلامية في العراق**، ج1، دار الرشيد، بغداد.
- العاني، علاءالدين أحمد، (1992)، **مآذن مدينة السلام**، أُطروحة دكتوراه غير منشورة، قسم الآثار، كلية الآداب، جامعة بغداد.
- الطيّب، عبدالله يوسف، (2001)، **الخصائص المعمارية للمآذن في عمارة المساجد- دراسة ميدانية وتحليلية للمآذن في مدينة الموصل القديمة**، في: أوراق موصليّة، عدد 2، مركز دراسات الموصل، جامعة الموصل.

- العدول، جاسم محمد (أ) (1992)، **الموصل في العهد الحميدي**، في: موسوعة الموصل الحضارية، ج4، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، الموصل.
- العدول، جاسم محمد (ب) (1992)، **المحاكم والقضاء** ، في: موسوعة الموصل الحضارية، ج4، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، الموصل.
- العمري، حفصة رمزي، (2000)، **أثر الدين الإسلامي على تشكيل أنماط أبنية العمران**، أُطروحة دكتوراه غير منشورة، قسم الهندسة المعمارية، كلية الهندسة، جامعة بغداد.
- قاسم، حسان الحاج، (1996)، **الخصائص التصميميّة للعمارة الإسلاميّة – دراسة تحليليّة للمآذن**، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم الهندسة المعمارية، الجامعة التكنولوجية، بغداد.
- محمد، د.غازي رجب، (1991)، **أهمية المسجد المركزية في المدينة العربية**، في: أنظمة المدينة العربية، مركز إحياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد.
- مراد، د.خليل علي، (1992)، **الموصل بين السيطرة العثمانية وقيام الحكم الجليلي**، في: موسوعة الموصل الحضارية، ج4، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، الموصل.

- Ardalan, Nader, (1980), **A Preliminary Study of Mosque Architecture**, In: Architecture As Symbol and Self-Identity, The Aga Khan Award, Philadelphia.

- Behrens-Abusief, Dorris, (1987), **The Minarets of Cairo**, The American University in Cairo, Cairo.
- Bonta, Juan, (1979), **Architecture and its Interpretation**, Lund Humphries, London.
- Broadbent, G, Bunt,R & Jencks,C., (1980), **Singns,Symbols & Architecture**, John Wiley & Sons, Chichester.
- Broadbent, Geoffrey, (1983), **Meaning in Islamic Environment**, In: Islamic Architecture and Urbanism, King Faisal University, Dammam.
- Grabar, Oleg, (1973), **The Formation of Islamic Art**, Yale University Press, New Haven & London.
- Hakim, Basim, (1986), **Arabic-Islamic Cities**, Routledge and Kegan Paul, Inc. , London.
- Hellenbrand, Robert, (1994), **Islamic Architecture: Form,Function & Meaning**, Edinburgh University Press, Edinburgh.
- Kafesçioglu, Çigdem.(1999). "**In the Image of Rum": Ottoman Architectural Patronage in Sixteenth Century Aleppo and Damascus**". In Muqarnas,V0L. XVI, Koninklijke Brill
- Masters, Bruce,(2006), **Semi-autonomous forces in the Arab provinces**, in: the Cambridge History of Turkey, Vol. 3, Cambridge University Press, Cambridge.
- Mohammad, Gazi Rajab, (1964), **The Minaret and its Relationship to Mosque in Early Islam**,unpublished Ph.D. Thesis, University of Edinburgh.
- Prochazka, Amjad, (1986), **Mosques**, Muslim Architecture Research Program, Zurich.
- Wirth, Eugen, (2000), **Die Orientalische Stadt im Islamischen Vorderasien und Nordafrica**, Band 2, Verlag Philipp Von Zabern, Mainz.

تم اجراء البحث في كلية ألهندسة = جامعة ألموصل